الزليج التطواني: جوانب تقنو تاريخية خلال الفترة المعاصرة

الدكتور حسن أكدي

كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس بفاس، المغرب

الدكتور نور الدين أشبون

كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان، المغرب

ملخص

يتناول المقال جوانب من حرف تطوان الطينية، حيث شكلت منذ القرن التاسع عشر مجالا لتشغيل قطاع واسع من اليد العاملة التطوانية التي تفننت في تطويرها عبر ابتكار أشكال وألوان ونماذج ارتبطت بإبداع والثقافة الأندلسية للحرفي التطواني. بل عدت رافدا أساسيا لتغذية السوق المحلية والوطنية بأنواع مختلفة من منتجاتها التي كانت تلقى رواجا حتى من خدام البلاط السلطاني وخدامه.

وإن كانت الحرف الطينية متنوعة ومتباينة في استخداماتها، فإن العديد منها كانت على ارتباط وثيق، ولعل حرفة الزليج إحداها والتي امتازت بأشكال وقوالب، وألوان جعلها على رأس الحرف التطوانية تميزا. فرغم تحديات الإنتاج والتسويق، ومستجدات التطور التقني الأوربي مطلع القرن العشرين فإن الحرفي التطواني حاول المحافظة على روحها وتفردها على الصعيد المغربي في تفاصيل كثيرة.

مقدمة

يؤكد الفقيه محمد داود أن «العادة والمعروف بتطوان أن الاحتراف لا يعد ضعة أو تقليلا من شأن الإنسان، بل هو شرف له، والوضيع هو الذي لا حرفة له، ومن الأمثال الجارية بين أهل تطوان قولهم: 'ينتم مال الجدين، وتبقى صنعة اليدين'، أي أن المال الذي يرثه الإنسان عن آبائه وأجداده لا يلبث أن ينتهي، فلا تبقى له إلا صنعة يده التي يمكنه أن يعيش بها موفور الكرامة مستور الحال مع أسرته»[1].

من هذا المنطلق نجد أن المجال التطواني قد عج بأنواع مختلفة من الحرف التي تعاطاها التطوانيون، لكن من الصعوبات التي واجهت هذا المقال قضية إحصاء عدد الحرف التي تعاطاها السكان على اختلاف أصولهم الاجتماعية، ذلك أن القراءة التاريخية للفئات المنتجة تقتضي ضرورة الوقوف عند عدد الحرف. لذلك فالمصادر

والوثائق لا تزودنا بمعلومات وافرة ودقيقة عن هذا الجانب، بما يمكننا تتبع تطور عدد الحرف بتطوان حتى نخلص إلى استنتاجات وافية وواقعية عن تطور البنية الحرفية خلال هاته الفترة الزمنية[2]. وهو ما يدفعنا للإشارة لبعض التساؤلات التي تحتاج التحليل، هل اختفت حرف معينة وظهرت أخرى جديدة؟ هل يمكن تحديد عدد الحنطات الحرفية بالمدينة؟ هل تعددها عكس حجم ودور النشاط الحرفي في اقتصاد تطوان خلال الحقبة المعاصرة؟

حقيقة ما تزودنا به بعض المصادر والمراجع قد يزيل شيئاً من الغموض في هذا الجانب، فأبو العباس أحمد الرهوني في موسوعته يطلعنا في الفصل الثامن على مختلف الحرف والصنائع التي راجت بالمدينة قائلا: «اعلم أن هاذه البلدة على صغرها، مركز عام لجل الصناعات التي يحتاج إليها البشر»[3] لذلك يمكن أن نصنفها حسب المادة الخام إلى أنواع واضحة[4].

ومادام مقالنا لا يسمح بتناول كل الصناعات التي ميزت المجال الحضري لتطوان، فسنحاول تركيز تحليلنا على الصناعات الطينية الفخارية[5] خلال الفترة المعاصرة، منطلقين من الإشكاليات التالية:

- ماهي بعض الحرف الطينية التي عرفتها تطوان ابتداء من القرن التاسع عشر؟
- ماهي بعض الخصائص التي ميزت حرفة الزليج بتطوان وتطورها خلال القرن العشرين؟

أ. الصناعات الطينية بتطوان: التعريف بنماذج خلال القرن التاسع عشر

من بين الصناعات المهمة بالنسبة للمدينة صناعة الآجور، والزليج، وصناعة الخزف، إذ كان صناعها ينعتون بالقشاشين والطفالين وغالبا ما كانوا ينجزون أشغالهم في المغارات والكهوف حيث كان يتم استخراج المادة الأولية اللازمة[6]. ويشير "جولي" في هذا الإطار إلى أن تلك الكهوف كانت قديما مخصصة لتوفير مواد لبناء المدينة، بل آنذاك كانت تتوفر على مشاهد زراعية خضراء تضفي على المدينة رونقا وجمالية أكبر[7].

وكان لهذه الحرفة أراض محبسة على أهلها في عدة مواضع فكان «الموضع المعروف بالطفالين خارج باب المقابر المحدود بمقبرة اليهود ومقبرة المسلمين وقف على المعلمين القشاشين والطفالين ينتفعون بتربته بصنعهم منها كافة أنواع القش»[8]، ويشار إلى أن عمل الفخار اقتضى مراحل عديدة لإنتاجه تبدأ بمرحلة تهيئة الطين ثم الدوار ثم التجفيف والإنضاج وأخيراً الطلاء[9]. وصنفت مصنوعات الفخار إلى نوعين منها:

- أدوات البناء

لن نجانب الصواب إذا قلنا إنه كان للفخارين دور كبير في التطور المعماري الذي عرفه المغرب، ناهيك عن كون صناعة الفخار محرك للدورة الاقتصادية. ويبدو أن التطور المعماري لتطوان خاصة لعب فيه الفخارون بمنتجاتهم سواء تلك التي همت مواد البناء أو تزويد العمائر بالمياه وكذا تصريفها دورا أساسيا[10].

- الزليج

أي الفيسفساء ويعبر عنها (بتازلايجيت) وصانعها زلايجي[11]، وهو عندهم أنواع، المربع والفُريح ... والقمرشن[12]. وقد كان المخزن يستعمل في قصوره أنماطاً من الزليج تتطلب فنية خاصة، لذلك كان 'الزلايجية' قبل الشروع في إنجاز الكمية المطلوبة منهم، يرسلون نموذجاً مصغراً عنها ليطلع عليه السلطان ويبدي موافقته أو عدمها عليه[13]. وقد شكل أهم البضائع لإنجاز بعض الأعمال العامة ببعض المدن من قبيل ترصيف الطرق أو الأبراج وغيرها «...والزليج علمنا العدد الواصل إليكم والباقي ترا القائد السيد محمد أشعاش كتب لنا وأنه واجدوها نحن وجهنا إليه ثلاتين من الإبل لتحمله...ففيه الخير فالكل شغل وطريق مرشان كذلك فلابد من كمال ترصفها واجعل في بالك تبطين البرج حيث مولانا حضض علينا فصاله وحين يكمل الزليج من تطوان اشرع في الدار الكبيرة بعد انفصالكم من العمل المذكور»[14].

والحرفة هاته كانت جد مزدهرة بالمدينة خلال المرحلة، فأهم العائلات التطوانية زاولت هذه الحرفة كعائلة رشيد المصطفى الذي أكد في لقاء معي أن عائلته مارستها خارج أسوار المدينة، وزودت أهل تطوان باحتياجاتها خصوصا بيوت الوجهاء والأعيان الذين كانوا شديدي الحرص على تزويق وتزليج منازلهم وفق النمط الأندلسي، لكن تمكن الإسبان من أخذ قوالب صنع الزليج فتح الباب أمام تدهور الحرفة، إذ صنعوا زليجا نافس المنتوج المحلي التقليدي لتطوان[15].

فالمعلم الحاج محمد مصطفى الذي عاصر حرب تطوان، ووقوعه أسيراً في يد الإسبان جعلوه غصبا يمنحهم قوالب هاته الحرفة، وحين عادوا في فترة الحماية قاموا بتمثيل صناعي له كان السبب في إضعاف صنعة الزليج الأندلسي التطواني[16].

وتوطنت هاته الصناعة «تحت القراور التي كانت محافر، أي كهوف بها دور الصنعة، أو ما يسمى بصنعة الفخارين...كما يصنع بها الزليج (الفسيفساء)، والمزهري وغير ذلك من فراش البيوت»[17]. وفي رحلته نحو تطوان يقدم "الدون فرناندو" معطيات مهمة عن معمل الزليج بالمدينة حيث يقول: «في اليوم التالي، وعلى الساعة السابعة صباحا، خرجت ممتطيا حصانا لأتجول بالضواحي لأزور عند عودتي أحد مصانع الزليج ...وأول

ملاحظة هو عدم تطورها مقارنة بأروبا إذ كانت توظف تقنيات جد عتيقة، وشكلت سراديب تحت الأرض الفضاء الخاص بإنتاجها. ورغم ذلك فإنها تمتاز بجمالية خاصة وإتقان ملحوظ وتنوع لا بأس به، إذ ينتج الصانع أشكالا مختلفة، ولكن الغالب عليها الأسود والأبيض والأزرق، وغالبية المنازل التطوانية والطنجوية وبعض المعالم الدينية هناك كانت تستهلك هذا المنتوج»[18].

وبخصوص الأشكال فغالبا ما كان 'الزلايجي' التطواني يصنفها وفق الأشكال الهندسية المختلفة والمتعددة يبرزها "ألكسندر جولي" كالتالي:

- أشكال ثلاثية، كالمدبدب، وطوالت، والقراط.
- أشكال رباعية: كالمدبدب والمربع، والصم، وزليج الزاوية، والفريخ الصغير والكبير، والرخامة، والمربع ذو 8 جوانب.
- أشكال مستطيلة: القطيب مدبدب، وقطيب دالصم، ذو الأطراف، ود الزاوية، ود الفريخ الصغير والكبير.
- أشكال رباعية غير متساوية الأضلع: كالكاموني، وقايم ونايم، ولويزة، والزغمي.
- أشكال هندسية ذات أوجه مختلفة أكثر من أربع أضلع: المزهيرية صغيرة وكبيرة، والمربع، والمسدس، وخاتم سيدنا سليمان، والقرشون الصغير والكبير، واثنا عشرة نقطة...
- أشكال غير متجانسة ومختلطة: زليج ذ التسطير وفيه: سداسي غير متجانس ومتجانس، ومعين، وثماني زوايا داخلية وخارجية، ومتداخل، وسداسي مختلط، وشرابة[19].

✓ الآجور

إحدى المواد التي كانت تستعمل في البناء خلال القرن التاسع عشر وقد كانت المادة الأساسية التي تدخل في تركيبه هي الطين لذلك كان المخزن يتدخل لمنع استغلاله من المكان غير الملائم للمصلحة العامة[20]. وصانعه يسمى «اللواجري»[21] وانتشرت أفرانه* بالمدينة على ضفتي واد تطوان في أسفل الوادي خاصة "الصوير" و"العدوة" و"المحنش". وبناؤها يشبه الأفران الفخارية إنما يتميز عنها بالصلابة والإتقان وتستغل كمادة أولية التربة الصلصالية الرملية لصنع ثلاث مواد: الياجور، والمربع والقرمود[22].

– صناعة الأواني المنزلية الفخارية

فكانت تشمل الطواجين، والزلافات، والطيسان والخوابي والقدور والمعاجن والقصع والأقداح والقلل[23]. والغالب أن صناع هذه الأمور يبيعونها بأنفسهم في حوانيت مخصصة لهم[24].

ومادام أنها عدت ضمن الاستعمال اليومي للسكان فإنها كانت ذات رواج مهم إلى جانب سلع أخرى بأسواق المدينة.

وما لابد التنبيه إليه هنا، أن قطاع البناء بالمدينة شكل اهتماما بالغ الأهمية في البرامج الإصلاحية للمخزن، بل ميدانا حرفيا وفر عبر ضريبة المباني مداخيل لبيت المال. وعليه تجد على سبيل المثال أن المخزن ينبه مسؤوليه بالمدينة أن البناءات لابد أن تحترم المساحات المخصصة لها، حتى لا تتضرر الطرقات العامة وشوارع الحاضرة، وعدم السماح لأحد بأخذ منها أو التعدي عليها، فها هو نائب السلطان ينبه قائد تطوان لذلك قائلا له: «فقد علمت أن المرجوع إليه في حفظ وصيانة الطرقات العمومية بكل مدينة ومرسى هو عامل البلد، والذي له النظر فيها هي إدارة الأشغال العمومية المخزنية، وحيث كان كثيرا ما يقع التعدي من أرباب الأملاك على بعض الطرقات بتوسيع بناءاتهم فيها وتخريبهم مجاري المياه العمومية المارة بها، وكان السكوت على ما يقع عليها من التعدي لا يمكن قبوله »[25]. كما أن الأهمية تبدو من خلال التأكيد على ضرورة إجراء إصلاحات بلدية تخص ضريبة البناء «فيما يرجع للشروع في إجراء الإصلاحات البلدية بمناسبة انتهاء قبض الواجب من ضريبة المباني عن السنة الماضية، وأنك جمعت أعيان البلد المحترمين للمشورة فيما يتعين تقديمه»[26].

من جهة أخرى فقد اشتهر محترفو البناء بتطوان بمهاراتهم وعبقريتهم في إنجاز الأعمال جعلت السلطان يلجأ إليهم للقيام ببعض الأعمال الخاصة به أو تخص الأجانب مثل ذلك الطلب الذي وضعه القنصل الأمريكي بأن تقدم له المساعدة لبناء قنصليته بطنجة، فما كان من السلطان سوى الاستعانة بأحد المعلمين من تطوان «..قونص المركان طلب من علي جنابنا أن نعين له معلما بناء ومن يساعده على عمله لبناء دار الرومي المذكور بثغر طنجة بحيث يكون المعلم عارفا بالأمور التي إحداثها ....وعليه وجه له المعلم المذكور وصناعه وأكد عليه فيما ذكر، وأجرتهم عينها لهم الرومي المذكور قدرها مثقال واحد للمعلم، وستة أواقي للصانع»[27].

يتضح من هذا، أن الفخارة كان لهم الفضل في توفير عدة منتوجات طينية شكلت محور دينامية لحرف أخرى ستنتشر وتنمو لكنها ظلت مرتبطة بشكل أو آخر بالفخارين. فمثلا وجود القناوي والقوادسي كان رهين بها، فلا يمكن وجود هؤلاء دون صناعة الفخار للقواديس والأقنية المائية. أضف لهذا وجود علاقة وطيدة بين الفخار والعمران، وحسبنا دليلا على ذلك أن الفخارة مازالوا لحدود الساعة ينتجون موادا للبناء كالقرمود أو للتزيين كالفسيفساء.

ب. الزليج التطواني أنموذج للحرف الطينية الأصيلة بالمدينة.

قليلة جدا هي الدراسات والأبحاث التي اتخذت الزليج التطواني موضوعا لها، فكل النتائج التي سنعرضها هي نتاج ما جاء في بحثنا الميداني الذي قمنا به. وهذا دليل آخر على أن الحرف الفنية الطينية التطوانية لم تلقى العناية والبحث التقني والجغرافي من طرف الباحثين. حيث قمنا بزيارة مركزين مهمين في صناعة الزليج التطواني الأصيل، واحد في قطاع التكوين، وهو مدرسة الصنائع والفنون الوطنية. والآخر إنتاجي وهو تعاونية القنطرة المختصة في إنتاج الزليج التطواني.

وهو عبارة عن قطع مزججة يصنعها الفخارون بتطوان لإعداد الفسيقساء التي تزين بيوت الأغنياء من الداخل. الإسم الشمولي "زلايج" أو "زليج". أو "زليج" في غالب الأحيان بتطوان. وهي قطع من الطين المشوي متعددة الأشكال لكنها تكون دائما صغيرة الحجم إلا استثناء[28].

فمن الناحية التاريخية تعتبر صناعة الزليج في تطوان من أقدم الصناعات الحرفية التي مارسها المسلمون خاصة، إذ يرجع وجودها إلى نهاية القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر وبالضبط عهد الباشا أحمد الريفي، الذي كان له دور كبير في إدخال مجموعة من عناصر في المعمار التطواني من بينها الزليج. وذلك نتيجة الرواج التجاري مع مجموعة من الدول الأوروبية، والاحتكاك بمدينة فاس التي كانت تحتضن مجموعة من الفنانين والمحترفين الأندلسيين. استعان بهم الباشا أحمد الريفي من أجل وضع الزليج في مجموعة من المرافق الدينية من قبيل الجوامع والزوايا تكريما لهذه المباني لما لها من قيمة روحية في المجتمع التطواني. ومن بين أهم المباني التي زينت بالزليج التطواني نجد قصر الباشا أحمد الريفي. وفي عهد السلطان محمد بن عبد الله في منتصف القرن الثامن عشر، وصل الزليج التطواني إلى مرحلة النضج إذ بدأ يستعمل في مجموعة من المنازل التطوانية أنذاك، فأخذ الزليج ألوانه الخمسة التي يتميز بها وكذا التقنيات المستعملة في إنتاجه، ولكن الزليج التطواني لم يتطور بوتيرة متسارعة إلا في القرن التاسع عشر، حيث ازدهرت كل الفنون الحرفية بالمدينة في هذه الفترة من بينها الزليج. ومن بين أهم الدور التي تظهر فيها جمالية الزليج التطواني نجد دار سلام الحاج، دار الطريس، دار بوهلال دار أفيلال، دار الصفار، دار بريشة وغيرها...

الوضعية الحالية للزليج التطواني هشة جدا، حيث اعتبر في استراتيجية 2015 للصناعة التقليدية من بين الحرف المهددة بالاندثار، والتي وضعت له الوزارة الوصية ميزانية مهمة لإنعاش الحرفة محليا. ولكن رغم ذلك مازال الوضع كما كان عليه. حيث لا يتم إنتاجه إلا من طرف ثلاث حرفيين على مستوى المدينة ككل. ورغم وجود محترف للتكوين على مستوى دار الصنائع إلا أن كل المكونين بعد نهاية التكوين يمتهنون مهنا أخرى غير

حرفة صناعة الزليج التطواني. وهنا يجب لفت الانتباه لنقطة مهمة وهي علاقة التكوين بسوق الشغل وكيفية تكوين حرفيين لهم مهارات حرفية فنية ومهارات حياتية أخرى من أجل الاستثمار في هذه المهارات التراثية والحرفية بشكل أفضل. عموما يكتسب الزليج ميزته التراثية اللامادية من تاريخه العريق، وأيضا من تلك المهارات والتقنيات التي يحتويها وكيفية تحويل المادة الأولية المتمثلة في الطين إلى منتوج تزييني غاية في الروعة.

1-المواد الأولية

المواد الأولية المستعملة في صناعة الزليج التطواني الأصيل هي مواد طبيعية من صلب المحيط الطبيعي التطواني. أولاها وأهمها على الإطلاق الطين الذي يجلب من منطقة الطفالين خارج أسوار المدينة العتيقة، كما كانت تجلب من أراضي شيدي طلحة والشبار وعلى طريق غرابو خارج باب المقابر. والماء لمزج الطين وترطيبه ليصبح مرنا سهل التحكم فيه. ثم الألوان أو صبغات التي تحتاج لتحضيرها ثلاث نقط مهمة إلى جانب تقنية صنعها وهي: مكونات الألوان، المقادير التي تدخل في تحضيرها وأخيرا الأدوات المستعملة.

وهذه الصبغات صنفان:

- الطلاء المزجج الشفاف: وهو ذهن مزجج يتكون من رصاص ورمل مخلوطين بعناية بغد طحنهما في جرن، وتحويلهما إلى عجينة شيه سائلة بإضافة كمية كافية من الماء، فالأمر يتعلق بزجاج من رصاص.
- الطلاء المزجج المعتم[29]. التي يقوم المعلم بتصنيعها من مواد تستخرج منها خمسة ألوان، وهي التي عرف بها الزليج التطواني منذ القرن الثامن عشر وهي على الشكل التالي:

جدول1: ألوان الزليج التطواني

اللون	المواد المكونة للون
الأبيض	تمزج مادة الرصاص مع مادة السطانيو ورمل منطقة كيتان.
الأسود	تمزج مادة الرصاص مع مادة المنغنيز ورمل منطقة كيتان.
الأخضر	تمزج مادة الرصاص مع مادة النحاس المحروق مع الكبريت ورمل منطقة كيتان.
الأصفر	تمزج مادة الرصاص مع مادة الكحول ورمل منطقة كيتان.
الأزرق	تمزج مادة الرصاص مع مادة السطانيو ومادة الكوبالت ورمل منطقة كيتان.

المصدر: عمل الباحث اعتمادا على البحث الميداني

صورة 1: طبخ ألوان الزليج التطواني

صورة 2: إعداد المواد الأولية لألوان الزليج

المصدر: تصوير الباحث من دار الصنائع والفنون بتاريخ2019/05/1

تعكس الصورتان مراحل إنتاج الألوان التي تستخدم في صناعة الزليج التطواني الأصيل، حيث تبين الصورة رقم تجهيز مقادير ومكونات إعداد الألوان، فيما تبين الصورة رقم مرحلة حرق المواد من اجل الحصول على ألوان طبيعية، تصمد أكثر رغم تعرض الزليج لمختلف أشكال الاستعمال.

2-مراحل صناعة الزليج التطواني

إنتاج الزليج يمر عبر مراحل عديدة كل واحدة تتميز بتقنيات خاصة نستهلها بأول مرحلة وهي التسطير أي تحديد تصميم الشكل أو الزواقة التي سيتم إنتاجها، وذلك بقلم الرصاص على الورق الأبيض الشفاف وهناك عدد كبير من الزواقات نذكر منها صنعة الثماني، وصنعة الطناشري، صنعة القطياني، صنعة السطاشري.

صورة 3: عملية التسطير في الزليج التطواني

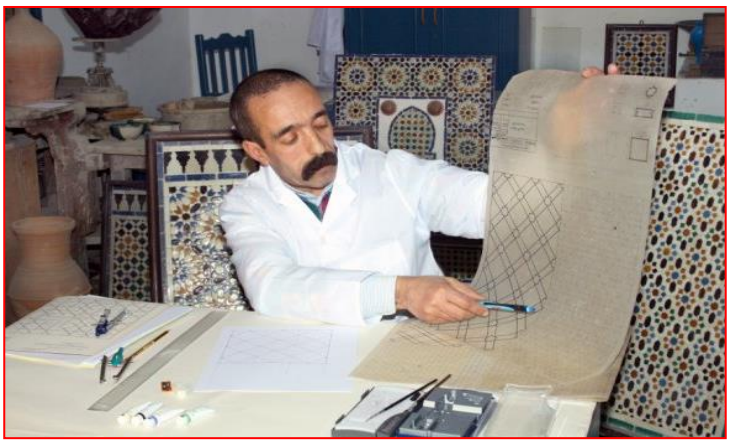

المصدر: تصوير الباحث بورشة الزليج **** الوزان بتاريخ 2019/05/1

تزكي الصورة الطرح القاضي أن بعض الحرف تقتضي إتقان الهندسة الفنية، حيث يقوم المعلم بعملية التسطير بقلم الرصاص على ورق شفاف من أجل وضع تصميم للزليج المراد إنتاجه.

ثم مرحلة إعداد الطين بتركه في الهواء الطلق بين ثلاثة وتسعة أيام، ثم تخميره في صهريج لمدة ثلاثة أو أربعة أيام، ثم يعجن بالأرجل جيدا بعد أن تضاف علية كمية من الرماد، ثم يقسم لقطع صغيرة تزن بين الكيلوغرام والكيلوغرام ونصف تعجن بالأيدي إلى أن تصبح طيعة وقابلة للتحكم فيها وتقطع في شكل مربعات سميكة تسمى البيسكوي. ثم توضع في القوالب حسب الشكل المطلوب صنعه، أو تقطع باليد. وهناك أسماء كثيرة للقطع الصغيرة المقطعة من بينها، الخاتم، الياسمينة، القسطلة، السقط، اليمين، الشمال، الفوركة، التربيعة، القنديل، قطيب، الخاتم، الكرانة، القنديل، الكويرة، اللوزة... ثم تنقل للفرن من أجل عملية الطهي الأولى، وتبلغ درجة حرارة الفرن بين 300 درجة و 650 درجة، حيث يتم رفع درجة حرارة الفرن تدريجيا، سواء أكان فرنا تقليديا أو عصريا حتى تصبح صلبة ومتماسكة، ثم توضع الألوان في الأواني ويتم صبغ الزليج قطعة بقطعة حسب اللون المطلوب ثم المرحلة الأخيرة في إنتاج قطع الزليج وهي الطهي الثاني حيث تصل درجة الحرارة في الفرن 950 درجة لمدة تصل بين 6 و 8 ساعات فيصبح جاهزا بذلك للتركيب على الحائط أو الأرض.

يكلف تركيب الزليج على الحائط بين 2 إلى 3 ساعات من العمل في المتر المربع الواحد، هذا إذا كان الحائط متساوي ولا عقبات فيه، أما دون ذلك فيستغرق حتى 4 ساعات، كما أن الوقت يتغير على حسب "الزواقة" إذا كانت مشكلة فيها عدة أنواع من القطع مثل صنعة العنكبوتي أو عادية مثل صنعة الصم (التربيعة) أو خاتم ويسمينه.

صورة 4: إعداد مربعات الطين بعد عجنها من أجل تحويلها لبسكوي

المصدر: تصوير الباحث من المدرسة الورشة بدار الصنائع بتطوان بتاريخ 2019/05/20
توضح الصورة طريقة إعداد مادة الطين قبل تحضير الشكل النهائي، حيث كان يجلب هذا الطين من منطقة الطفالين أو أحيانا من منطقة كيتان.

صورة 5: تركيب الزليج التطواني

المصدر: بعدسة الباحث بتاريخ 2018/01/1/15

تعتبر مرحلة تركيب الزليج على الحائط من أكثر المراحيل تعقيدا وصعوبة باعتبارها تنزيل لتصميم الذي وضعه المعلم للشكل النهائي. لهذا تحتاج للدقة والخبرة.

لاحظنا في الآونة الأخيرة، وخلال تهيئة المدينة العتيقة لتطوان، يتم وضع زليج ليس تطوانيا لا من حيث الصنع ولا من حيث الشركات التي تعمل على تركيبه، وهو أمر غير منطقي يفقد المدينة العتيقة لهويتها، ويجعل من التكوينات التي تتم في الترميم وصناعة الزليج ماءا على رمل غير صالحة للعمل الميداني، ولا ينتفع منها سكان المدينة لا من حيث المردودية الاقتصادية ولا من حيث الاحتفاظ بالطابع الثقافي والهوية التطوانية.

صورة 6: نموذج نهائي للزليج التطواني بعد إتمام التركيب

المصدر: بعدسة الباحث بتاريخ 2018/01/1/15

توضح الصورة نموذج لشكل معين للزليج التطواني بألوانه المعروفة، وهي عبارة عن لوحة حائطية فنية تبدعها أيدي الصانع التطواني

3-نماذج عن الزليج التطواني

يتخذ الزليج التطواني العديد من الأشكال الجزئية المكونة للرقعة الفسيفسائية النهائية، حيث يتجاوز العدد النهائي لهذه القطع العشرون شكلا أساسيا، كل شكل يصبغ بلون محدد، ليشكل نسيجا و شبكة فسيفسائية.

اسم النموذج	الوصف	الصورة
شرافة	شكل ارتفاعه 6.3 سنتيمترات وقاعدته 4.5 سنتمترات. وهو يشبه لحد بعيد قطع الشطرنج بشكل عكسي. كما يشبه تلك القطع الزخرفية التي تعلة أسار القلع والقصور، وغالبا ما توضع على الحائط في أعلى الشكل النهائي يتم صبغه بالأبيض والأسود.	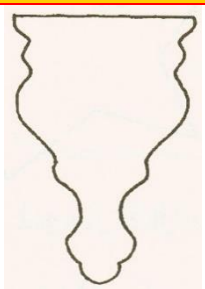
سباعي	شكل من أشكال التسطير وهو معقد يكون بمختلف الألوان.	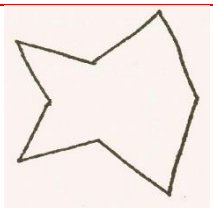
ثماني	شكل ثماني الأضلاع، هو عبارة عن مستطيل في طرفه الأيمن نتوءة مثلثة وفي طرفه الأيسر مثلث	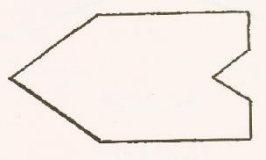
الفاسي	مربع أضلاعه مقعرة يصبغ بكل الألوان، قطره 6.8 سنتمتر، وتقعر كل ضلع 06 سنتمتر.	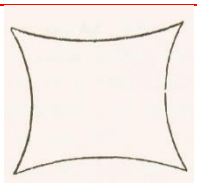
طوالتة	شكل يشبه الصليب الذي بتر جزئه العلوي، يصبغ بكل الأولون.	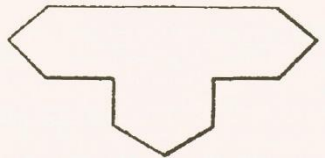

تناشري	نجمة ذات 24 ضلع و12 نتوء ويساوي القطر بين رأسين نتوءين 5 سنتمترات. وارتفاع كل النتوء 0.9 سنتمترا. ويصبغ بكل الألوان.	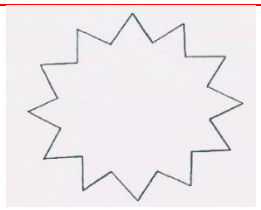
خاتم كبيرة	على شكل نجمة ثمانية، أو على شكل مربع يتضمن 4 نتوءات طول النتوءات هاته نصف سنتمتر، تصبغ بكل الأوان.	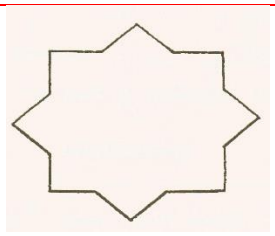
مزهيرية صغيرة	شكل ثماني الأضلاع كل ضلع طوله سنتمتر و1.5 سنتمتر بالتناوب. يصبغ باللون الأبيض.	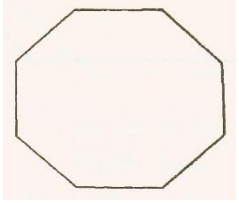
الزغمي	مستطيل ممدد على طول 5.1 سنتمتر وعرضه 1 سنتمتر يتضمن نتوءات على طرفيه الأيمن والأيسر عمقها لا تتجاوز النصف سنتمتر.	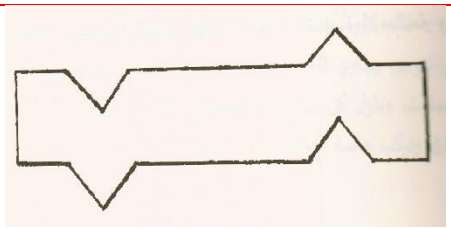
لويزة	تشبه حبة اللوز الصغيرة كما لو كان معين مشوه قطره الأصغر طوله 1 سنتمتر.	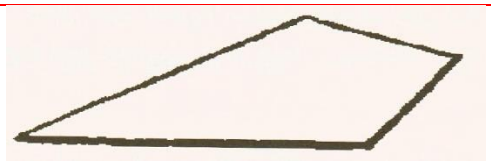
كموني	شكل معين قطره الأول طوله 1.5 سنتمتر والثاني طوله 3.2 سنتمتر وضلعه 1.8 سنتمتر يصبغ باللون الأزرق والأسود والأبيض.	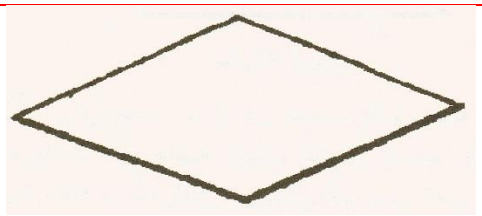
قطيب ذالأطراف	مستطيل طوله 7.5 سنتمترات. وعرضه سنتمتران. يصبغ باللون الأزرق والأسود والأبيض.	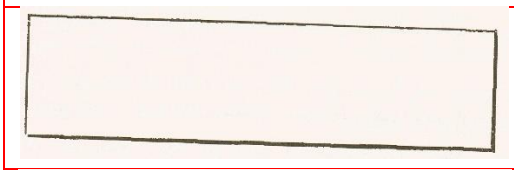
قراط	مثلث متساوي الساقين طول ضلعيه 3.7 سنتمترات. يصبغ باللون الأخضر.	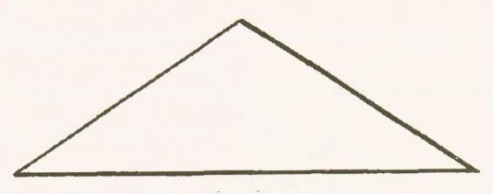

قراطات	شكل يصبغ بالأزرق أو الأبيض أو الأصفر، وهو عبارة عن مربع أسفله مثلث وفي أعلاه نتوءة بحجم المثلث.	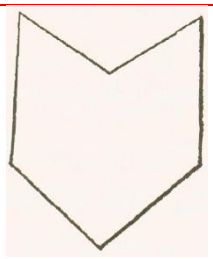

المصدر: عمل الباحث اعتمادا على البحث الميداني

خاتمة

عرفت مدينة تطوان بالحرف الطينية لغنى المدينة بمادة الطين والقش، ولعبت دورا رياديا في الاقتصاد المحلي خلال قرون خلت، فأعطت قيمة مضافة للنسيج الحرفي بالمدينة اعتبارا لوجود ثلة من الصناع المسلمين المهرة، وأيضا لتوفر مناخ صناعي ملائم للحرفة.

ويعتبر الزليج التطواني أهم هذه الحرف الطينية، هذا الأخير الذي أغنى المعمار التطواني خاصة فيما تعلق بالدرور والقصور والمؤسسات العمومية في فترات مختلفة، وتبقى فترة الباشا أحمد الريفي أهم هذه الفترات على الإطلاق. ولازالت هذه المعالم لحد الآن تشهد على مهارة الصانع أو الزليجي التطواني. في حين تواجه الحرفة حاليا مشاكل عدة، عرقلت تطور هذا الإرث الحضاري، واستمراريته. من أهكها ظهور الزليج الصناعي الحديث، وقلة الحرفيين والأوراش المصنعة له، وعدم استغلال الدعم المقدم من جهات معينة لأجل إحياء هذا التراث الثقافي اللامادي.

الهوامش

[1]- محمد داود، التكملة ذيل لكتاب تاريخ تطوان في خطط المدينة وسكانها وحياتها الاجتماعية. مراجعة وتحقيق وإضافات، حسناء داود، منشورات جمعية تطاون أسمير، مطبعة الخليج العربي، تطوان الطبعة الأولى 2016، ص.444. بل مراجعة الأمثال الشعبية في هذا الإطار، تعرفنا بأن التطوانيين كانوا يرون نظرة إيجابية بخصوص امتهان الشخص صنعة أو حرفة ما، ومن الأمثلة نذكر:

~ الصنعا إذا ما اغنت تستر، واقيل تزيد ف العمر.

~ صنعة بوك، لا يغلبوك.

~ الله يعز الصنعا.

[2]- هناك محاولة للفقيه الرهوني في موسوعته بالجزء الأول حيث أحصى ما يزيد عن ثمانين حرفة توطنت بالمدينة على مر تاريخها. أنظر، عمدة الراوين في تاريخ تطاوين. تحقيق جعفر بن الحاج السلمي، منشورات جمعية تطاون أسمير، مطبعة الخليج العربي تطوان، صص. 222 – 256. أضف أن ابن عزوز حكيم، يؤكد أن الإسبان فيما يخص الصناعة التطوانية، ركزوا بداية في أوصافهم مند مطلع القرن التاسع عشر، على جمع معطيات تهم صناعة السفن أساسا، ثم فيما بعد حرصوا على تقصي كل ما هو مرتبط بالتصنيع داخل المدينة. ورغم ذلك فليس هناك معطيات دقيقة أو مفصلة يتم الارتكاز عليها في هذا الجانب. راجع:

- ~Ramón Lourdo Díaz, «La ciudad y región de Tetuán durante el sultanato de Muhammad III a través documentación española» Colloque Tétouan au 18éme siècle (1727-1822). Organisé du 21-23 octobre 1993.Coordinateur, Group de Recherches sur du Maroc et Andalus. publications de la Faculté des Lettres et des Sciences humaines de Tétouan, et École Supérieur Roi Fahd de Traduction Tanger. Imprimer Al hidaya- Tétouan. p. 32

وفي إحدى مقالاته، يشير جون لويس ميج، لمعطى إحصائي بخصوص صناعة المدينة، حيث يشير لإحدى تقارير نائب القنصل الإنجليزي ماهون، الذي يذكر أنه سنة 1863م، كانت بتطوان 184 ورشة صناعة تعمل من أصل 186، وذلك في إطار 92 حرفة يبلغ عدد العمال بها 721 عامل، والنشاط الذؤوب كان بصناعة السلاح. راجع المقال بالقسم الأجنبي ضمن، ندوة تطوان قبل الحماية (1860 -1912). مجموعة البحث في التاريخ المغربي والأندلسي بتعاون مع المجموعة الحضرية لتطوان. نظمت أيام 12-13-14 نوفمبر 1992. كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان، مطبعة الهداية – تطوان. م. س.

-(J.L) Miège, « *La Crise économique de Tétouan dans la seconde moitié du XIX*ème *siècle».* Tétouan avant la protection. (1860-1912). série, colloque jour : 12,13,14, Novembre 1992, coordinateur, , Group de recherche sur histoire du Maroc et de Andalousie, en coopération Faculté des Lettres et des sciences Humaines de Tétouan, et Groupe Urbaine à Tétouan , Imprimer Al hidaya, Tétouan, P. 9.

[3] -عمدة الرواين، المرجع، السابق، ج1، ص.222.

[4] – صنفها الرهوني في، عمدة الراوين، وخاصة بالجزء الأول إلى حرف دنيوية ودينية. بينما إحدى أبرز المراجع الأجنبية حاول فيها صاحبها أن يثير النقاش بخصوص إشكالية التصنيف، فعند تقديمه لدراسته بخصوص صنائع تطوان عند مطلع القرن العشرين، نجد جولي، يقسمها إلى: صناعة منزلية أي تلك المرتبطة في إنتاجها بعوائل تطوان بالمنازل، وأخرى يطلق عليها اسم صناعات ذات طابع عام وتكون موجهة للبيع بالسوق. وبالرغم من ذلك فإنه يستشعر أن التقسيم بهذا الشكل قد لايخلو من غياب الموضوعية، فلابد من معايير على أساسها يتم التصنيف ك، طبيعتها، شهرتها، أهميتها، رواجها الاقتصادي...

وبعيدا عن أي تنظير أو تصور معرفي يقرر جولي أن دوره في دراسته لصناعة تطوان تقتضي مد القارئ بمعطيات تهم تلك الصناعات وفق، تقسيم يبرز الرئيسي والثانوي والفرعي منها، ليحسم تحليله في الاستناذ لمعيار قد تتوفر فيه الموضوعية وهو «المادة الخام». وإن كان كذلك —في نظره-لا يخل من ثغرات، فمثلا نجد أن الصناعة التي أساسها مادة الطين كالفسيفساء، والأواني، والخزف، منتجها واحد، أي أن حرفيوها قد يصنعون مواد خزفية، والزليج، وكذا الفسيفساء.

في نهاية المطاف يضع جولي تقسيما لصناعة تطوان، في إحدى عشر صنفا، مؤكدا أن ذلك يراعي الوضوح والتنظيم، وانتشارها المجالي عند الدراسة والتحليل. أنظر، عمله،

- A ,Joly. l'industrie à Tétouan, in A M, V 08, Paris, 1906, pp. 196 -200

[5] – حرصا على الظبط وللتوضيح لابد من إبراز الفرق ما بين مصطلح الخزف والفخار، لذلك فتوفيق محمد لقبايبي قدم لنا ذلك التمييز في النقط الآتية: ~ الفخار يصنع من طينة طبيعية، غير مركبة أو مضاف إليها مواد أخرى، أما الخزف فطينته دائما مركبة، حيث يضاف إليها العديد من المواد الأخرى، مثل المادة الزجاجية.

~ الفخار أقل صلابة من الخزف.

~ الفخار تكون مسامية عكس الخزف، كما أن هذا الأخير يمتاز باللمعان وإحداث الصوت عند النقر عليها.

~ الفخار يحرق مرة أما الخزف مرتين، والأول أقدم من الثاني.

راجع، محمد توفيق لقبايبي، حرف الماء الماء في تاريخ المغرب، بين التأصيل والتجديد. دراسة في تاريخ نماذج من الحرف المائية. مؤسسة آفاق للدراسات والنشر والاتصال، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، الطبعة الأولى 2020، صص. 298-299.

[6] – كارمن ديلاطوريت رامريث، «3 مسارات بالمدينة العتيقة في تطوان»، المدينة العتيقة في تطوان، دليل معماري. بشراكة بلدية تطوان سيدي المنظري، ومنطقة الحكم الذاتي الأندلسية، طباعة –تجليد مطبعة أسكاندون ش. م،2001، ص.90. أيضا أنظر:

- Don Luis Martinez, Mateo, Tetuan, (evocacion sentimental), Imprenta del Majzen Tetouan, Junio.1949, p.7.

[7]- L'industrie à…، op. cit, p. 266.

[8] - وثائق أوقاف طائفة الطفالين، وثيقة رقم 12. وردت عند خالد الرامي في كتابه، النظام الأصيل لتوزيع الماء بمدينة تطوان 1862-1913. منشورات جمعية تطوان أسمير، مطبعة الخليج العربي، تطوان، طبعة 2008، ص. 168.

[9] - لمزيد من الاطلاع يرجع ل للحاج عبد السلام بنونة: تحفة الإخوان في الصنائع القديمة بتطوان، تخريج وتقديم، حسناء داود، مطبعة الخليج العربي، تطوان، طبعة 2016. صص.60 – 65. وكذلك، حرف الماء...، صص. 316-318.

[10] س، ص. 321..- حرف الماء...، م

[11] - عمدة الراوين، م. س، ج 1، ص.250.

[12]- م ن، ج1، ص، 250. وهناك أنواع أخرى أشارت لها فاطمة العيساوي كـــ: «المنقوش المدبدب، والمزهري، والاحصار، والهجماط، والقبطاني، وبوكراع، والرصيع، والكويرة، والعنكبوتي...» أنظر: جوانب من علاقات المخزن بالحرف 1822-1894. د. د. ع في التاريخ، نوقش بكلية الأداب والعلوم الإنسانية بالرباط، السنة الجامعية 1989 (هامش)، ص. 185.

[13] - فاطمة العيساوي، جوانب من علاقات المخزن...، المرجع السابق، ص.186.

[14] - رسالة من بوسلهام بن علي إلى الأمين الرزيني، بتاريخ 22 صفر 1260ه/ 5 مارس 1844م، أوردها، محمد داود، تاريخ تطوان، مراجعة وتصحيح حسناء داود، منشورات مؤسسة محمد داود للتاريخ والثقافة، مطبعة دار أبي رقراق للطباعة والنشر، طبعة 2013، مج 8، ص. 380.

[15] - حوار مع الأستاذ التطواني رشيد المصطفى، كما تضمنت وثائق، عائلة المصطفى، إشارات لهذه الحرفة كتلك، المؤرخة في 1292هـ/ 1875م ومما جاء فيها «إراثة السيد الشاب فيها محمد بن الحاج الصادق أخريف التطواني، أمه فاطمة بنت المعلم محمد مصطفى، المقدرة بإحدى عشر مائة مثقال واثنان وثمانون مثقالا وتسع أواق وربع أوقية أو من بينها محفر الزليج خارج النوادر». وكذلك يذكر الفقيه المرير هاته الصنعة بحسب ما ذكره محمد الشريف في أحد مؤلفاته، قائلا: «وهذه الصنعة قديمة بالمغرب، امتازت بها فاس وتطوان على سائر بلدان المغرب ولقد أخذ الفن مأخذه الجميل بفاس حتى صار طرفة للطرف ونزهة

للحاضر ولا تقصر تطوان عن مجاراة فاس في ذلك، بل زليج تطوان يفوق زليج بصحته ولمعان لونه وعدم تأثره بطول الملامسة».
أنظر: محمد الشريف، تطوان حاضنة الحضارة المغربية الأندلسية. منشورات جمعية تطاون أسمير، مطبعة تطوان الطبعة الأولى 2013، ص.62.

[16] - رشيد مصطفى، «تقييم وثائق عقارية لعائلة مصطفى (1857 – 1942م)»، ندوة، تطوان والتوثيق من القرن 16 إلى القرن 20 م. تنسيق احمد بن عبود، سلسلة أعمال الندوات رقم: 13 لمجموعة البحث في التاريخ المغربي والأندلسي، منشورات كلية الأداب والعلوم الإنسانية بتطوان، مطبعة الخليج العربي تطوان، الطبعة الأولى 2007، ص.184. ويشار أن هناك طرقا لتهيئة الأصباغ المرتبطة بها وكذلك كيفية صبغه، أنظر: تحفة الإخوان...، م. س، صص. 65 – 68.

[17] - عمدة الراوين، م. س، ج 1، ص. 206.

[18] - Don Fernando Amor, Recuerdos de un viaje a Marruecos, Sevilla 1859, Imprenta de Andalucia. P.363.

[19]- L'industrie à…، op، cit. pp. 295-308.

[20] - فاطمة العيساوي، جوانب ...، م. س، ص.182.

[21] - عمدة الراوين، م. س، ج 1، ص.251

* أنظر شكل وأجزاء هذه الأفرنة عند جولي في،

-L'industrie à ...op, cit, p. 327.

[22] - عبد العزيز السعود، تطوان خلال القرن التاسع عشر، مساهمة في دراسة المجتمع المغربي. منشورات جمعية تطاون أسمير، مطبعة الحداد يوسف إخوان ش.م.م/تطوان، 1996، ص.24.

[23] – عمدة الراوين...، م. س، ج 1، ص.250.

[24] – المرجع، نفسه، ونفس الجزء والصفحة.

[25]– رسالة من محمد الجباص إلى القائد عبد السلام بن الحسين البخاري، بتاريخ 10 ذي القعدة 1329 ه/ 24 نوفمبر 1911م، تاريخ تطوان، م. س، مج 10، ص.276.

[26]– م. ن، المجلد 8، ص.277. ويتبين أن تنظيم الضريبة كان منذ 1327ه/ 1909م، حيث خصص المخزن مختصا في هذا الجانب ليحاول طرح إجراءات عملية تحقق أهداف الإصلاح، أنظر: نفس المصدر والمجلد، صص.241-242.

[27]– رسالة سلطانية للقائد محمد أشعاش، بتاريخ 11 صفر 1244ه/ 14 غشت 1828م، تاريخ تطوان، م. س، مج 8، ص.137.

[28] – ألكسندر جولي ترجمة جمال الدين العمارتي، الحرف والصنائع بتطوان خلال العقد الأول من القرن العشرين، الطبعة الأولى، مطبعة الخليج العربي، تطوان، ص 90-91

[29] – ألكسندر جولي ترجمة جمال الدين العمارتي، الحرف والصنائع بتطوان خلال العقد الأول من القرن العشرين،... مرجع سابق، ص 110-111.